

٣ - إلى أرض النبوة !

[وصف وتاريخ رحلة الوند السوري إلى الحجاز
ربيع ١٩٣٥ لفتح طريق الحج البري للسيارات]

للاستاذ علي الطنطاوي



تركنا للقراء في « المحفر السمودي » على الحدود . وأشهد
أنى لم أذق طعم الأنس والاطمئنان منذ فارقت دمشق إلا في هذا
المحفر ، ومهما نسيت من المشاهد ، وأضمت من الذكريات ، فإن
أنسى تلك الساعة ، ولن تضيع من نفسي ذكراها ، وإنى لا أنجيلها
الآن ، وقد مر على تلك الزيارة خمس سنين ، ولم يبق في يدي
منها إلا معلق بذهني ... أنجيل تلك الخيمة الشعرية للشعرية ،
الجامعة على ذلك التل العالي ، تطل على التلال التي لا يحصها عد ،
وقد اتكأت فيها على جنبي ، ونظرت إلى أسفل مني فرأيت للملوك
الشائكة ، فمجت منها سلكة لا يربأ بها تفرق الأخ من أخيه
— وتجعل الشعب شعبين — ثم مدت بصرى حتى ضل في ثغايا
للشراب المتألق في وهج الظهيرة ؛ ثم بلغ « دمشق » ، دار الأوبة
ومثوى الأمانى ، فهزنى الشوق إليها والفخر بها ، والأسمى عليها
لما أصابها ... ثم رجعت للبصر إلى البادية من حولى ، فسرت
في روحى روحها ، فشعرت كأن قد صهرتني شمها ، فندوت
كأولئك الذين خرجوا منها جنناً في النهار ، ورهباناً في الليل ،
وموتاً للظالمين والمبطلين ، وحياة للشعوب ورحمة للناس ... وتمنيت
لو كان اليوم إلى الميرموك أو القادسية طريق ، حتى أسلكه
كما سلكه أجدادى الأجداد ... وهبات أن يكون للشباب الذى
أضاع روح الصحراء إلى مثلها طريق ...

إنما الإسلام في الصحرا امتهد ليحجى كل مسلم أسعد



وأكلنا من طعام الجند وهو الزبد والرز والتمر ، وشربنا
من ألبان اللتيان وما أقدم من شراب ... وتبادلنا أطيب الحديث
فكان بشرهم وحديثهم قرى حلوا كتمرم ، سائفاً كلبهم .
ثم سألونا عن الطريق الذى نسلكه فأشرنا إلى الدليل ؛ فحدثوه
فوجدوه أجهل بالبادية من (الكنانى) وأصحابة بلغة العرب ،
ووجدوه يضرب بنا على غير هدى ويسير على عشى . فأتبعوا

صنيعهم معنا ، فبشوا واحداً منهم يصحبنا إلى (القرىات)
يرشدنا ويهديننا ، وكان هذا الواحد فتى حلواً جميلاً ولكنه على
حلاوته وجماله أمضى من السيف الباتر ، وكان اسمه (سلامة)
فتفاهلنا به خيراً . وكان صلى الله عليه وسلم يتفاهل ، وقالت :
رافقنا السلامة إن شاء الله ، والحاج غراب صامت لا ينطق ...
وودعنا للقوم للكرام ومرنا نغرق صدر البادية المهولة
وأرواحنا مملقة بيد سلامة ، وسلامة يشير إلى السائق وبقى
عليه أوامره : يمينا . شمال . اصعد للتل . تجنب الرملة . والسائق
يجمع ويطيع ، والسيارات تنفل من هذه التلال ، ولبننا على
ذلك إلى العصر ، عصر لليوم الثانى من أيام الرحلة ، فرأينا رملة
بيضاء فسيحة لها منظر البحر في سمته وتوجهه واستوائه ، تملأ
العين جمالاً والقلب من خوف سلوكها فزعاً ، بلوح من ورائها
سواد قليل كأنه للتخيل أو خيال البنيان . فقال سلامة سلمه الله :

« هذه هى القرىات »

والرمال التي رأيناها في البادية على نوعين : رمال منبسطة
بيضاء دقيقة كالغبار ، لا بطية بالأرض ، يتخللها نبات من نبات
الصحراء (وسأصف فيما يأتى من الحديث أنواعاً منها خبرناها)
ورمال حمراء حباتها أكبر ، وامتدادها أكثر ، وهى تلال يأخذ
بعضها بأعقاب بعض ، تشبهها العين بأموال البحر ، لو كانت
تجمد أمواج البحر ، وإذا أنت تأملت وأجدها في حركة دائمة
لا تستقر حباتها ، وبذلك ينتقل التل العظيم من مكان إلى مكان
في الشهر مرة أو للشهرين ، ولقد رأينا في عودتنا مناطق كانت
سهلة ما فيها حبة رمل ، فصارت بعدنا آكاماً من الرمال

وهذه الرمال آفة للسيارة ، وعلتها التي لا دواء لها ، فإنها
للينها وتهافتها لا تثبت تحت دوليب السيارة ، فتفوس فيها
كما تفوس في الماء ، وتلبث فيها كأنما دفنت وهى في الحياة



ولقد لقينا من هذه الرملة عناء ثقل في وصفه مبالغات
الصحراء ... غرقت فيها السيارات ، وما لها لا تفرق وقد قلت
لك إنها رملة كالبحر ، أفتمشى سيارة على وجه البحر ؟ ولقد
لبثنا إلى الليل نزيح الرمل من حول السيارة ، ونرفهها رفقاً ،
ثم ندفعها بمواتقنا دفقاً ، ثم نجرها بالحبال ، حتى إذا قلنا سارت
عادت فناصت ، فلم تقطع الرملة حتى تقطعت أعمارنا ، ولم نخرج

منها حتى شهدنا أنه لا إله إلا الله !

وقريات الملح قرى ست متقاربة أكبرها قرية (كافي) ، ولكنها لا تحوى على نصف سكان (حلبون) أخس ترى الشام ولا تبلغها كبراً واتساعاً ، وهى فى غور من الأرض ، وكان أول ما استقبلنا منها الحصن ، وهو حصن كبير من الحجر الأبيض السنون ، علمت أن الأمير نواف بن النورى بن الشعلان هو الذى بناء أيام تسلطه على تلك الديار ، منذ خمس وعشرين سنة ، ولم أجد من استزیده من خبره ... والقريات اليوم إمارة ، وهى مقر الأمير . ومما رأينا فى الحكومة للسعودية أنهم يسمون كل من يلى مدينة مهما صغرت أميراً ، لا فرق فى ذلك بين أمير القريات ، هذه ... وبين أمير المدينة المنورة ...

وكان الأمير يومئذ غائباً فى مكة يشهد الموسم ، يقوم مقامه ابن أخ له ، وهذه العادة فاشية فى الحجاز ، إذا غاب الأمير نائب عنه ولداً له أو قريباً ، وكان نائب الأمير فى قرية أخرى من القرى الست ، فلم نلقه ، ولكننا لم نعدم من يستقبلنا ويكرمنا ، وغاية الإكرام (كما رأينا) أن ندخل الفصر ، وتوقد النار فى زاوية البيت الذى جلسنا فيه ، ويشعل فيها اللبنا هذا الذى يضرب بحره المثل والذى ذكره للشعراء فأكثروا ، وكذوا به عن نجد ، مهوى الأفتدة منهم ، وقد رأيت صراراً فوجدته كثيراً فى البادية وهو كالشمس غير أنه أجل شكلاً وأدق ورقاً ، وهو أشد شجر رأيناه فى البادية أخضراراً ، أما جره فكالقمح الحجرى ولا مهالفة ، وقد عرفه للشاعر حين زعم أنهم (شبوه بين جوانحه وضلوعه) ، أما نحن فعرفناه فى هذا البيت حين أشعلوه وزادوا فى إضرامه حتى بلغ لهيبه السقف ، ثم قربونا منه وأجلسونا إلى جانبه ، فلما (تمهوننا) وثنا حظنا من الإكرام للبالغ ... سألونا سيارة تأتى بالأمير ، ودعينا إلى دار أخلوها لنا ، وكانت دار مفتش الحدود (عبد الرحمن بن زيد) وهى أكبر دار فى القريات وأجلها إلا أنها خالية لا شئ فيها ، ففرشنا فيها ما كنا نحمل من بسط وفرش وإحرامات ولم أبتئس أنا بمخلوها ، فقد كان بساطى وإحرامى أحب إلى من كل ما يمكن أن يفرشوه فيها . ولما اطأنا على أمتعتنا وعلى مكان مبيتنا خرجنا نجول فى القرية فإذا هى بيوت من الطين قاعة على (شاطيء) الرملة يحف بها نخل قليل وفيها حقول

تزرع فيها بعض الخضر ، وتسقى من عين جارية وفيرة تقوم برى قسم كبير من الأراضى لو كان هناك مال وكان هناك أيد عاملة تسمى فى توسيع الأراضى الزراعية وتحسين زراعتها . ويحيط بالبلدة وبساتينها ورملتها صخور أهرامية هائلة رهية المنظر تمتد من حولها كأنها سور إلهى ... وحياة هذه القرى من الملح الذى يستخرج من السباخ الكثيرة للقرية من البلد ، وبصدر إلى حوران وشرق الأردن .

بقنا فى دار ابن زيد هذا خير مبيت ، وقد جاؤنا بالعشاء من قصر الأمير ، فلما أصبحنا غدونا عليه ، فرأيناه شاباً ذكياً ليس بالمتعلم ولكن له مشاركة فى بعض علوم الدين ، ويحفظ شيئاً من أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم ، تلقاها فى مجالس العلم ، وتلك سنة حسنة استنها الإمام عبد العزيز حفظه الله . فجعل ليلى كله للعلم يأتى مجلسه العلماء فيقرؤون فيه كتاباً ، فإذا أتموه شرعوا فى غيره ، وتكون مناقشات علمية يشترك فيها بنفسه ، وقد قلده الأسراء جميعاً فى ذلك ؛ فمن هنا ما يحفظ هذا الشاب نائب أمير القريات ...

استقبلنا بنفسه على عتبة الباب ببشر وإيثار ، وجلس معنا يحدثنا ونار اللبنا تافح وجوهنا . ولبثنا على ذلك ساعة لم يدع فيها الأمير دقيقة واحدة قوكة : قهوة . شامى . شامى . قهوة . يدور علينا بها عبد أسود كأن شففيه غطاء ووطاء ، وكأن جسمه المحمل ، ثم أدبرت علينا الجمرة وفيها البخور ، بخور اللعود ، فلم ندر ما نصنع بها ؛ ثم وجدنا الأمير يضم عليها طرفى كوفته أو عباءته حتى يتمشق للطيب ثيابه ، ثم يدعها فصنمنا مثله ، وانتهى للمبيت من إدارة الجمرة ، فرأيت الأمير ينظر إلينا ، فقام الشيخ الرواف واستأذن ، وقنا معه على أن نجتمع للظهر بالأمير على اللغداء ...

فلما خرجنا ، قال الشيخ الرواف : ألم تسمعوا المثل للنجدى ؟ قلنا : وما ذاك ؟ قال : « إذا دار اللعود فلا تمود » . فعلمت سر نظر الأمير إلينا ، وتمنيت لو دخل هذا المثل بلادنا ، حتى عرفه للناس ؛ ثم ذكرت أن عندنا بحمد الله من لا يفهم باللعود ولا بالعصا ولا يخرج من زيارتك ، حتى يخرج غيظاً من جلدك ...

هلى الطنطاوى

(لها بنيا)